
دموع
بلورية

إهداء

لمن له نصيبٌ من هذا الحزن

دموع بلورية

كان رجلٌ ضعيف البنية لا طاقة له على العمل و كسب رمق العيش ، البؤس مُحاط بوجههِ بالإضافة الى الهالات السوداء التي تحط أسفل جفنه والتجاعيد تُشكل لوحة حزينة يظهر فيها جلياً فقره و عوزه .

وبالرغم من أن عينيه مؤصدتان عن مشاهدة النور في هذا العالم الا أن قلبه كان محاطاً بعناية إلهية .

وعجيب هو القدر فعندما يتيه البشر في خارطتهِ يرسل اليهم من يربت على أكتافهم ويجبر كسرهِم ويحتضنهم ويأنس وحشة لياليهم الحالكة .

ذات ليلة جلس الرجل كعادتهِ وحيداً في أحد الخرِبات لا يلوي على شيء حتى إذا هدأت العيون باغتته زيارة مفاجأة من أحدهم .فأختار الشخص مجلساً قريباً من المسكين . فألقى التحية عليه وبعد الذهول الذي خيم على الرجل رد السلام أخيراً على ضيفه . ولو أن عينيه تسنى لهما مشاهدة الرجل لما وقف عن التسبيح اكباراً واجلالاً لجمال طلعته وعظمة هيبته .

كان عريض المنكبين ، متوسط الطول ، ذو بنية ضخمة توحي بكونه فارساً . اما عيناه فكانتا واسعتين دعجاءين ذوات بريق أخاذ وكأنهما نجوم في سماء ليلة متوشحة بوشاح السواد تاركة للنجوم حرية اللمعان.

تحيط وجهه لحية اضافة له مسحة من الجمال وزينته .

أقتات الغريب بعض الطعام والشراب وراح يُحدث الرجل وكأنه على معرفة قديمة بهِ .

وأخذ يُحدثه بما يؤنس وحشته وينسيه الألم ولوعتهِ .

حتى اذا سأله عن اسمه ليستوضح شخصهُ أجاب : إنما أبتغي في ذلك وجه الله و الدار الآخرة .

فأصبحت الخربة بحضورهِ غادة انتشرت فيها لمسات ملكوتية معطرة بالتقديس بتسبيحه وتهليله وحمدهِ الذي يتمتم به ثغره العطر وأن الأحجار و الحيطان ترددان أقوالهُ وتجيبان تسبيحاته .

فانقلبت الخربة الموحشة الى بيت مؤنس والظلمة الحالكة الى سراج منير .

فامتلأ قلب الرجل سعادة أيما سعادة .

وأصبح دأب الغريب أن يحضر عند الرجل كل ليلة حتى صار جزءاً مهما في حياته و شغل مكان عالم بأكملهِ .

وفي كل لقاء ينقلب وجه الرجل من الشحوب الى النضارة ويطرب قلبه جذلان بتلك الزيارة .

ومع تتابع الأيام و الفصول وعلاقتهما تكبر وتزهر مما يجعل هذا الرباط الذي شدهما معا يستحيل حلّه . الا بما يجري على ورق القدر من حكمة و مشيئة .

في احد الايام تكأبت سماء المدينة وراحت تصطبغ بلون رمادي . ومن ثم استحال لونها قاتم واذا بالضباب الأسود يخترقها ويعود محملاً بالظلام المخيف الذي يسود العالم برمتهِ . وكأن السماء قبل الارض أرتدت ثوب الحداد . موشحة بحلاكة قاتمة تروي عذاب . وصار المشهد مهول تتسع له الاحداق وتجفل له القلوب بوجل و تخر له الابدان . حتى يصرخ صوت من السماء مدوٍ مهول فينبأ العالم بموت رجل عظيم .

وقعت الواقعة و لم يعلم الشيخ ولم يعرف حقيقة الأمر فظل يرتقب الليل لعل حبيبهُ يعود إليه فيأنس بقربه وتكتحل عيناه بوجوده .كانت الليالي تمر ولا زال له نصيب من الانتظار القاسي فكان يلوذ بالنظر بعين قلبه الى الطريق لعل عين الرحمة تنظر اليه فتجمع شمله بالحبيب .

"الوذ بالصبر ومذاق الاناة مر

وليس لي مندوحة غير الصبر"

قضى الرجل ليلة مهجورا لا يمت لأحد بصلة وحيداً واضعاً رأسه على لبنة اتخذها كالوسادة .وكان يئن انين مسموعاً

واذا بجماعة كانوا عائدين توا من دفن قريبهم فسمعوا انينه واقتفوا اثره حتى اذا وصلوا الى تلك الخربة التي يسكن فيها وجدوه مُلقى على الارض يئن كالثكلى الوالهة .

فسأله السيدان الجليلان عن حاله فأجاب قائلا :إني عبد غريب جئت الى هنا منذ سنة ولما كان الفقر نصيبي وضيق العيش قدري سكنت في هذه الخربة . ولم يفتأ ان تغير وضعي بقدوم غريباً كان أنيس وحشتي وخليل أملي .

فلم يملك السيدين خيار حتى اطلقوا العنان لدموعهم و كأن القلب بدأ يدق تنبيهاً ويخفق لما ادرك من حقيقة شخصهِ.

ثم قالا : صفهُ لنا .

فتعذر مخبرهما والسبب علة عيناه التي لم تجعل الفرصة تسنى له كي يلقي بطرفه نحو الغريب فيشبعهما من النظر اليه فيتذكر بذلك عيناه وقسمات وجهه وابتسامة ثغره. ولما سألاه عن حديثه فاردف يحدثهم عن أذكاره التي انطّقت الحجر حينها ادركوا أهل المدر إنه هو ذات الشخص المدفون قبل قليل .

فأخبرا الرجل بعد أن تيقنا من هويتهِ : هذه صفات سيدنا ومولانا أمير المؤمنين (ع).

فسألهم بلهفةٍ جلية عما حدث له .

وكان رد عينيهما الفائضة بالدموع قبل افواههما :"قد أفجعنا فيه اشقى الأشقياء إبن ملجم وها نحن عائدون من دفنهِ "

أتاه الرد كصاعقة لو أنها وقعت على الحجر لكانت أقل تأثيراً من وقعها على قلبه.

كان الخبر كسكين خرقت أضلاع الرجل لتصل الى قلبه فترديه صريع الألم و الحزن معاً. هذا الفقد المباغت جعل الرجل يصاب بنوبة حزن قد قرعت كيانه فأنقسم لها مئات الأقسام كل جزء يحكي فيها جرحه وكسره .فأرتمى على الأرض وراح يضرب رأسه بالصخور ويحثو على رأسهِ التراب .

وبينما هو على هذا الحال سألهما بلوعةٍ :

"ما اسمكما و أسم ابيكما ؟"

فأجابه كبيرهم : أبونا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) وانا الحسن وهذا اخي الحسين وهؤلاء بقية اولاده واقربائه وجملة من اصحابه عائدين من دفنه.انتقل علي الى عالمٍ ثانٍ عالم مجرد لا يتصل بالدنيا إلا بالموت المُحتم وعرجت روحهُ الى بارئها لينال مقعد الصدق الذي وعد فيه المتقون .ولما كانت الحياة تتحول الى موت بغياب الحبيب كالبستان الذي يصبح صحراء بسبب أنعدام المطر كذلك الحال لمن فقد سبب سعادته .

و أيفاء وعد الحب لدى العشاق ضرورية من ضروريات مبادئهم

واجب في احكامهم وها هو ذا الرجل يهم

بالالتحاق بمعشوقهِ (علي) وترك هذه الدنيا التي تعزف وتدق الطبول لتطرب حياة الظالم الذي مُلئ فؤاده حقداً وحنقاً على اولئك الصادقون . الذين كان العدل و الإحسان في حياتهم محوراً كعمود الخيمة. فكيف برجل سماوي كعلي بن ابي طالب (ع).

وبعد تلك النائبة أقسم الرجل عليهما أن يعرجان به الى قبر المولى علي فأمسكه الحسن من يده اليمنى والحسين من اليسرى واخذاه الى مكان الدفن المنور. والناس من ورائهم بين بكاء وعويل كأنهم يعيدون تشييع الجثمان المقدس.

وعند وصولهم لم ينتظر الرجل حتى جثى على القبر وأنكب على وجهه وهو يمرغ بدنه بالتراب ويصرخ كالثكلى .

أيا معشر الناس قولوا لي

أليس هناك للقياه سبيل

وحيداً والغمام يحيط بي

كما يحيط بالثكلى العويل

اصبح لعينيه منابع للدموع لو جمعت لكانت زمرة من فصوص البلور واستمر هكذا حتى غشي عليه فكاد الجمع يهلكون من فرط البكاء ومأساة المشهد .

وحينما أفاق سأل الله ان يلتحق به فكان هذا آخر ما نطق به قبل الرحيل .

ان صدق المشاعر التي تنبعث من القلب تجعل صوت الداعي لا ينتظر طرق الباب حتى تأتيهِ الاجابة فور اكمال جملته.

سقط جسد الرجل كخشبة مُلقاة ولكن روحهُ عرجت باسِمةً الى السماء نال فيها حلاوة اللقاء .فكما أودع جثمانه بقرب جثمان حبيبه كذلك الروحان آلتا الى التلاقي في رحاب وضيافة الله سبحانه وتعالى.

اليتيمة

بين الاعشاب الكثة التي تدغدغها هبات الهواء و المصبوغة بالخضرة شاهدت جسمين لم يكونا واضحين كالشبح ولما دنوت واذا به رجل بهي الطلعة قد أمسك برسن جواده اوحت لي هيئتهُ بأنه سيغادر لكنه بمجرد أن شعر بوجودي حتى التفت إليّ وهو يبتسم . لم تنتظر ابتسامته مني طرقة بابا حتى ابتسمت له لا ارادياً .

كان ذلك الشعور لا يوصف كأنني في حلم او في جنة عدن .

شعرت بأنه يدعوني للاقتراب أكثر .

كانت قدمي خفيفة كريشة حمامة وانا أخطو نحوه .

رفع يده ووضعها فوق رأسي وعدّل وشاحي بضم شعري تحته حتى اذا اخفاه مسح على رأسي واردف يقول : أنت جميلة هكذا يا صغيرتي ،

رف قلبي ثم بدأت تتدفق السعادة فيه .

حتى وكأنني أعرفه منذ الولادة رغم ان هذا لقاؤنا الاول .

أردت تقديم هدية صغيرة ولما كنت لا أملك من المال شيء و لا من الحاجات سوى ثيابي قطفت زهرة توليب كانت قد تدلت قربي فأخذتها بيد وامسكت يده بأخرى واضعة الزهرة براحة يده العطوف.

رغم شعوري بأن هذا غير كافٍ فهو قدم لي ما لم احظ به مذ كنت في الثالثة حتى يومي هذا وانا في الخامسة من عمري .

تمنيت لو إنه والدي بالحقيقة حتى اذا وقف على أمنيتي قارئاً عيني ،قال لي انه سيكون لي اباً ولضعفي قوة و لعوزي كنزا .

فرحتي كانت كبيرة وأطلقت العنان لدموعي وأذرفت الكثير منها وحوطته بذراعي وقد حوطني هو الآخر حتى امتلأ العالم ، عالمي انا بالدفء والحنان والشعور بجمال الحياة .. وكأنني حظيت بعائلة كاملة في لحظة واحدة .

لقد ختم لقاؤنا هذا بقبلة طبعها على جبهتي ثم قادني من يدي ورحنا نقطع الأرض المفروشة بزهور التوليب الملونة والتي ستشهد على قصتنا وتروي هذا اللقاء الأخاذ.

حظيت معه بفترة لا توصف من شدة جمالها صرت فيها لا أعيش البتة الا وأنا أصبح وأمسي على وجههِ وعلى صوته الذي يُمثل صرح كياني لكن جرت مشيئة القدر على ان يفرقنا في يوم شؤم ، ساعة شؤم ، جريت مسرعةً بخطوات حثيثة قاطعة المدينة كي أحصل على كأس لبنٍ أخبروني أنه دواء علته ، تعثرت كثيراً وانا افكر بهِ حتى اذا وصلت إليه وجدته قد اغلق عينيه عن هذا العالم القاسي حينها ترجيته كثيراً بالعودة لصغيرته المسكينة

أتعودُ يا مالك قلبي ...أتعود؟

فهواكَ من اتعب وجدي...

وسأشكو الهجر الى ربي..

ويصلي قربانا دمعي .. لتعود

اضحيت حيران بحزني و صمتك بات يؤرقني

وغيابك عني انهكني .. باللهِ عليٌ لا تهجرني

أيجود الدهر بمثلك ...ايجود ؟

ويعود عليّ ببسمتك ...

ويخلّفُ حسن ملاحتك ..

ان هو اهل يعطي مثلك...ليجود

لقد انهكني الحزن حتى جثوت على الأرض ملطخة بالتراب وأنا ارنو كلمة منهُ

اي(علي) مثلك يداوي العليل

فهِّب لخدي قبلة قبل الرحيل

تسليني دامت فيّك انفاس

وتملأ ذكراكم بحب أصيل

كانت المرة الأولى التي اناديه فيها ولم يرد عليّ بحرف و لم يجبني بتلك البسمة التي أدمنت عليها، ترجيته باكية ها قد سقط وشاحي فمن يعيده لرأسي مرة اخرى ؟ لم أحصل على جواب وقتها أغلقت قلبي على إسمه ودفنته في قبره .